المحاضرة الثالثة: **اللغة والفكر العالم**

توطئة:

منح الله تعالى للإنسان عقلا يفكر به، وهيأ له لغة يبني بها أفكاره ،ويعبر بها عما يخلج في نفسه ، فهي وسيلة تعبير و تبليغ وإقناع ، وقد عبر عنها ابن جني في كتابه الخصائص "حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم".فاللغة من خلال هذا التعريف ، فهي ذات بعد فيزيولوجي، عصبي، يرتبط مباشرة بالصوت المنبعث من الجهاز النطقي، أما كلمة قوم فهي تعبر عن رمز حضاري وثقافي لشعب من الشعوب ، كما تفيد كلمة أغراضهم ،عن الوظائف و الأدوار التي يتواصل بها أفراد مجتمع ما،وإن لغة المجتمع تمثل أحد جوانب ثقافته....أن العلاقة بين اللغة والثقافة هي علاقة الجزء بالكل."

إنّ اللغة بمثابة متتالية تحمل بين ثناياها نظام صوتي ذات دلالة معجمية مرتبة ترتيبا منطقي وعقلي ،فهي نسيج منظم بإحكام ،حيث "نظم الحروف هو تواليها في النطق وليس نظمها بمقتضى عن معنى ،ولا الناظم بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما يتحراه" ،ومن هذا الجانب يتبين لنا أن نظم الحروف وترتيبها تأخذ معنى اعتباطي فتأخذ مفرداتها دلالة ذاتية ولم يتحرى المنطق والعقل في تأليفها.أما الكلام هو ذلك النسيج اللغوي المنظوم في نظام ذهني ، تحكمه علاقات دلالية معينة وتترتب معانيها في النفس ، لتؤدي وظيفتها التواصلية، وعبر عنها الجرجاني:"وأما ((نظم الكلم)) فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها حسب ترتب المعاني في النفس ،فهو إذن نظم تعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض ،وليس هو ((النظم)) الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق". ويفهم من هذا القول أن هذا نظم الكلم ليس اعتباطيا أو عشوائيا بل تحكمه علاقات منطقية ، فالمفردات تترتب معانيها وفق من يجاورها ويناسبها في صناعة النسيج الكلامي،ومنه كان الكلام "نظيرا للنسيج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك ،مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض ،حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك ،وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح" . يستخلص من هذا أن معاني المفردة تتحكم في دلالتها الذاتية ،في ضوء علاقتها بما قبلها وما بعدها من المفردات ،وكذلك حسب السياق المقامي للمفردات،"فاللغة التي يحملها خطاب ما ،لا تعد بنية اعتباطية ،بل نشاط لأفراد مندمجين في سياقات معينة ."

أما عند المحدثين :

فمنذ أواخر القرن التاسع عشر ،أخذ مفهوم اللغة في التغيير ، وقد أحدث ذلك التغيير جهودا من طرف العلماء لدراسة لغات العالم وصفا ومقارنة للوصول إلى نظرية عامة في اللغة، فجاء تعريف اللغة في نظر الأمريكي "إدوار سابير sapir"، أنّ اللغة "نظام بشري غير غريزي لتبليغ الأفكار والأحاسيس والرغبات بواسطة رموز (symbols) مستحدثة بطريقة إرادية". أما العالم اللساني الأمريكي تشومسكي صاحب النظرية التوليدية التحويلية ، والذي أحدث ثورة في اللسانيات فقد عرّف اللغة بأنها " مجموعة (متناهية وغير متناهية) من الجمل، كل جملة محدودة الطول ومتكونة من مجموعة من العناصر"، من خلال هذا التعريف يتبين لنا أن تشومسكي لم يشر إلى اللغة على أنها ذات وظيفة تواصلية .

تسعى اللغة إلى فتح آفاق للعالم، فهي جزء كامل من التفاعل الاجتماعي "أنساقها أمور متواضع عليها، إذ هي لا تنظم ضروب التأثير والتأثر الاجتماعي فحسب، وإنما مقولات تلك الأنساق وقواعدها تنمو وتتطور تحت تأثير بنية التفاعل داخل المجتمع"، فتعمل على تحقيق التواصل بين الشّعوب وتقرّب الثقافات وتنشر القيم الإنسانية والأفكار والاتجاهات ، وتشتغل على تجسيد تاريخ ثقافات الأمم، فهي بمثابة الضّمان الأساس للتواصل، يحملها كل خطاب يدعو إلى إثارة العقول واستمالة القلوب، لهذا "لا تُعد بنية اعتباطية،

بل نشاط لأفراد مندمجين في سياقات معينة "، أما "دي سوسير" الذي غدا مرجعا لكثير من الباحثين في مختلف الاختصاصات سواء كانت لغوية أم أدبية ،بل حتى نفسية واجتماعية ، فقد تناول اللغة بوصفها أداة اتصال بين الدال والمدلول ، حيث أنّ " المرسل يبدأ بصورة ذهنية تم الاتفاق المسبق على دلالتها بصورة عفوية وثبتت هذه الدلالة عن طريق العرف ، والاستخدام يحولها إلى صورة صوتية ...من طريق التلفظ الصائت و تصل الصورة السمعية إلى أذن المتلقي فيحولها إلى الصورة الذهنية المتفق عليها عفويا . وحين تجئ دوره للكلام يحول الصورة الذهنية إلى صورة سمعية من طريق التلفظ الصائت ويتلقاها المستمع بنفس الطريقة السابقة" .

1/ جدلية اللغة والفكر:

يُعد الفكر مزية أساسية ينفرد بها الإنسان عن بقية المخلوقات ،فهو بمثابة الوعاء الذي تختزن فيه التصورات والتخيلات، ومن البديهي أنه يحتاج إلى لغة يعبر بها عن مكنوناته الداخلية ،والتواصل مع غيره ،لأنّ "اللغة نشاط اجتماعي ونظام فردي ،وحركة فردية ، وحركة عضوية ،وتجسيد لتاريخ الثقافات،وعملية منطقية، وحمولة إعلامية،ومعادلة رياضية،إلخ"، أما الفكر الذي عبر عنه ابن خلدون "هو التصرّف في تلك الصّور وراء الحَس وجولان الذهن فيها بالانتزاع والتركيب ،وهو معنى الأفئدة في قوله تعالى ((وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة)). [الملك23]

يُعدّ الفكر نظام مركزي إنساني يشمل وحدات لغوية وثقافية (القيم والمعتقدات الثقافية) ،و يحمل معاني ومفاهيم وقضايا يستدل بها المخاطب عند الكلام أو التلقي ،ويعرفه عبد الكريم بكار بأنه"إعمال الإنسان إمكاناته العقلية المحصول المتوفّر لديه بغية إيجاد بدائل أو حل مشكلات أو كشف العلاقات والنسب بين الأشياء" ، كما أن المجتمع الإنساني يعيش تحت رحمة اللغة التي بها يترجم المعاني والصورة المتخيلة والمتمركزة في الذهن البشري الذي له " القدرة على الاستقبال والتخزين والتحليل و التركيب، ثم الاستنباط والتصور والابتكار ، و ينتج عن هذا كله مختلف التعبير الكلامي "؛ أي بمعنى القدرة على استحضار صور خيالية للعالم الواقعي الذي نعيش فيه و العالم الخيالي ثم استعراضها في عقلنا الواعي " . لكن لا ننكر أنّه وقع جدل ونقاش محتدم بين الدارسين واللغويين حول علاقة اللغة بالفكر ، فنجد علماء النّفس يرون أنّ اللغة من مظاهر السلوك الإنساني ،وإذا كان علم النفس موضوعه السلوك الإنساني ، فإن دراسة السلوك اللغوي من الموضوعات التي يلتقي عندها علم النفس باللغة "، وهذا "فيجوسكي" وهو أحد أعلام علماء النفس يرى أن تدفق التفكير لا يصاحبه ظهور متزامن للكلام (فالعمليتان ليستا متماثلتين ، ولا يوجد تطابق جامد بين وحدات التفكير ووحدات الكلام "، يفهم من هذا الكلام أن"فيجوسكي" يفصل بين التفكير واللغة ، وهناك من يدعم رأيهم وهم أصحاب نظرية العزل ،والتي يقصد بها أنّ العلاقة بين اللغة والفكر "تصبح آلية ميكانيكية على غرار علاقة الإناء بالسائل الذي يشغله ،فأصحاب العزل يجردون التفكير عن جميع ارتباطاته الحسية المادية باللغة وينظرون إلى كل منهما بمعزل تام عن رفيقه،ولكنهم يضطرون تحت ضغط الرابطة التي يلاحظونها بينهما بالفعل إلى تفسير هذه الرابطة تفسيرا آليا بوصفه صلة عارضة آلية تحصل بين شيئين مختلفين تمام الاختلاف في الطبيعة والوظيفة "، في المقابل نجد من يرى "أنه لا فرق بين اللغة والفكر ،وأنهما شيء واحد"؛ لأنّ "النظام اللغوي في الذاكرة هو مجموعة من المفاهيم، وهي الحدات اللغوية ، بالإضافة إلى معانيها المتمثلة في صور ومفاهيم أو قضايا.وتختزن أيضا بعض المفاهيم الإضافية التي تحدد التوزيع الاجتماعي للوحدات اللغوية، وعندما نتحدث أو نتلقى ، فإننا نقوم باستخدام المفاهيم التي نعرفها حتى نستدل على القضايا(معاني التراكيب)، وحتى نستدل أيضا على التصنيفات الاجتماعية المحددة في شكل مفاهيم"، ونترجم هذه المعاني في الرسم التخطيطي الذي وضعه "هدسن" في كتابه (علم اللغة الاجتماعي)، يوضح العلاقة القائمة بين الفكر من جهة واللغة والثقافة والكلام من جهة أخرى، كم هو موضح في الشكل الآتي:"

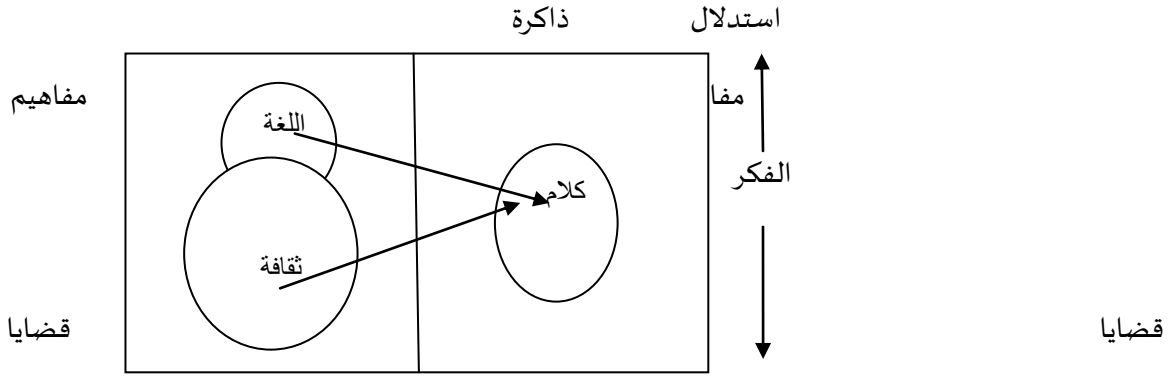

من خلال هذا الرسم التوضيحي يتبين لنا أن الفكر يمثل المربع كله، في حين نجد اللغة والثقافة والكلام وحدات تتمثل بدوائر داخل المربع؛ بمعنى أن الفكر يشمل على اللغة و"علاقة الفكر باللغة علاقة متينة ووطيدة ،لا يمكن أن يستغني أحدهما عن الآخر ،فهما وجهان لعملة واحدة. كما أن ثمة علاقة وطيدة بين خصوصية التفكير والإدراك الذهني حمولة اللغة ؛ وذلك لأنّ" التّفكير والإدراك لا يمكن أن يتحددا وأن يتسما بقابلية التوصيل إلا من خلال اللغة ؛ ومن ثمّ فإنّ اللغة والتفكير لا يقبلان الانفصال، وليسا مُستقلّين" ، فالعلاقة بينهما علاقة الجزء بالكل، وهذا ما تبينه الحكمة السقراطية"أيها الإنسان اعرف لغتك تعرف نفسك،واعرف نفسك تعرف العالم".